المحاضرة الأولى و الثانية

تقديم:

تعيش الإنسانية وسط عالم من الرموز التي تعبر عن ثقافاتها وترتبط بماضيها وحاضرها وتتحكم في مصيرها، وتثريها بمعانيها، ودلالاتها المتباينة، مما وضعها دائماً في قلب الحدث، وبؤرة الاهتمام. أماطت اللثام عن أسرار الحياة، وقادت الإنسان وحفزته ودفعته إلى آفاق جديدة بعد شحذ قدرته الإبداعية. ولأنها غزيرة بكل ما تمثله، وما تلعبه من وظائف سوسيولوجية وسيكولوجية؛ أحيطت بصعوبات خاصة في تحديد ماهيتها وألغازها، وصولاً لدلالاتها، لأنها لا توجد منفردة أو نقية خالصة، بل تختلط بغيرها، فتختلف صورها، وتتداخل مفاهيمها، وتتغير تفسيراتها. توظف الرموز في شتى حقول المعرفة، مثل: تاريخ الحضارات- الأديان- اللسانيات- الأنثروبولوجيا الثقافية- النقد الفني- علم النفس- الاجتماع- الطب، بالإضافة إلى: الإعلان، والإعلام، وتقنيات الدعاية السياسية.. وغيرها.

-حوارية المفهوم:

عصي على التحديد الدقيق، لا يخضع للتعريف الجامع المانع، فطبيعته تنسف الرؤى وتخترق الأطر المعتادة ليعاد صياغتها الإبداعية، ويوحد جزئياتها في رؤية واحدة، وهو بقدر ما يوضح يخفي! وبقدر ما يسفر في تحجبه، يتحجب في سفوره. تتشكل الرموز بدقة ويتوسل فيها بانحسار جزء من أسرارها، والإبقاء على معظمها في انتظار التحليل الشفري. أقرب معانيها ما أورده ابن منظور في (لسان العرب): (الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، إشارة بالشفتين، وقيل: الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم. والرموز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين، ورمز يرمز رمزاً. وفي القرآن الكريم ورد في قصة زكريا -عليه السلام- بسورة آل

عمران، الآية 41: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ.﴾

ورمزته المرأة بعينيها ترمزه رمزاً: غمزته. وجارية رمازة: غمازة، وقيل: الرمازة الفاجرة مشتق من ذلك أيضاً، ويقال للجارية الغمازة بعينيها: رمازة أي ترمز بفيها وتغمز بعينيها. ويرى د.بهاء الدين محمد مزيد أن (الرمز هو كل علامة أي كل كلمة أو صورة، لون أو حركة، صوت أو إيماءة، وغيرها مما يتجاوز دلالته معناه السطحي القريب إلى العميق البعيد، وما لا حصر له من الدلالات والمعاني التي ترتبط بسياقها النصي وبمنتج العلامة أو منتجيها (مؤلف النص)، ومستقبليها (القارئ أو المتلقي)، قد لا يتطابق تأويل المتلقي مع ما أراد منتج النص، على أن كل معنى محتمل يليق به أن يكون معنى مقصوداً ما دام ينسجم مع الدلالات الكبرى للنص، باعتبار (الترميز شحن لتلك العلامات بالإيحاءات النفسية والثقافية والسياسية من خلال توظيفها في سياق يستدعي تلك الإيحاءات ويبررها)..إن (كل علامة رمز، أو مهيأة للترميز، قد تبقى على ما هي عليه في المعجم أو في نظامها العلاماتي الأسلسي، وقد تتسع دلالاتها فتتحول إلى رمز).. فالرمز باب من أبواب المجاز في البلاغة العربية، يندرج تحت مبحث البيان الذي يشتمل التشبيه والمجاز والكناية. وهناك الكثير من الرموز، مثل: الرموز الأدبية- الفنية- البصرية- العلمية- البريدية- التشكيلية- المرورية- الإلكترونية- الدينية.. وغيرها، مما يحتمل تأليف كتب موسوعية، فقد دونت في كل رمز كبير كتب كاملة. وهناك صور ملتبسة تختلط بالصورة الرمزية أو الرمز، فتمسخه، أهمها: الأيقونة، والأمثولة، والعلامة، وللأخيرة أنواع، مثل: الشعار- الصفة- المجاز الصوري- الاستعارة- الأمارة- المثل- الحكمة. فإذا كانت العلامة مثلاً (اصطلاح اعتباطي يترك الدال والمدلول غريبين أحدهما عن الآخر)؛ فإن الرمز يفترض تجانسهما، وهو يتميز بكونه يقتضي الانتقال إلى مستويات دلالة عميقة. الرمز لا يكتفي بالظاهري تفسيراً لمكوناته، وما تشير إليه، مما يستوجب تفكيك بنيته. يتسم أيضاً بالديناميكية لأنه يشحن بالخيالي والإبداعي، وبهذا فإن (الرموز الجبرية والرياضية والعلمية ليست سوى علامات تعتني فيها معاهد توحيد المقاييس بالجدوى الاصطلاحية عناية فائقة. ولا وجود لعلم صحيح يعبر عن ذاته بالرموز بالمعنى الدقيق للكلمة. تتجاوز (الرموز) كثيراً

(العلامات)، لتخطيها الدلالة، والتأويل المسبق، فهي محملة بالانفعالات والفعاليات، وتتوسل بالبنى الثقافية.

- **في البنية الإبداعية**

ينطوي الرمز في الأصل على معنيي الفصل والوصل، ويشهد تاريخه بأنه شيء يمكن أن يكتسب قيمته الرمزية سواء أكان طبيعياً (أحجار- معادن- نباتات- حيوانات- كواكب- أنهار- بحار- محيطات- جبال- نيران، وغيرها) أم مجرداً (شكل هندسي- رقم- إيقاع، وما سواها)، غير مقتصر على كائنات وأشياء واقعية فقط، بل يعني (نزعة- اتجاه- حلم، وغيرها).

يعبر الرمز في التحليل النفسي بطريقة غير مباشرة/مجازية يصعب تفكيكها، فهو العلاقة التي تجمع بين المحتوى الظاهر والمعنى الخفي لسلوك/ فكرة/ قول، وبمجرد إقرارنا بوجود معنيين يحل أحدهما محل الآخر بأن يحجبه أو يعبر عنه في ذات الوقت، يمكننا أن ننعت هذه العلاقة بالرمزية التي تتميز بتلازم العناصر الظاهرة والخفية للرمز، وهو عند يونج ليس مجازاً أو علامة بل صورة خالصة تحدد طبيعة العقل (الوعي واللاوعي) وتحيل على معنى يصعب إدراكه أو استخلاصه يعاود الظهور في شكل مستعار لصورة رمزية تعبر عن اتجاه نفسي أو نزعة طبيعية أو غيرهما..

تبنى الرموز على ترسيمات وجدلنية-وظيفية تحرك النفس. ويرى تزفيتان تودوروف أن الرمز تكثف فيه المعاني والدلالات لتثريه، وتفيض بمحتواه ومضامينه التعبيرية، بشكل يخضعه لمبدأ تعدد الأبعاد وتنوع الأوجه بكيفية لا متناهية .

يكتسب أي موضوع قيمته الرمزية من خلال، تحويله إلى رمز يشتمل الظاهري الملموس، والخفي المجرد، من المفاهيم، وهو يتضمن معنى سرياً، أو لغزاً، لكنه دوماً يحتوي جزءاً دالاً مثقلاً بالملموس، ملتبساً بالتعبيرات اللغوية والقيم التشكيلية المتدفقة والمتضافرة في اكتشاف السر، ليشبه بذلك بلورة تعكس الضوء بكيفية تختلف وفقاً للوجه الذي يستقبله.

الإنسان كائن رامز لا تستقيم حيلته إلاّ في ظلّ المعنى، ومن ثمّ ما لنفكّ، في مغامرته الوجوديّة، يُضفي على أشياء العالم وظواهر الكون دلالة ومعنى. فالإنسان كائن يعيش داخل عالم الرموز والصور، أو قل إنّ عالما من الرموز والصور يسكنه. ولمّا كانت مفاهيم الرمز والصورة والمعنى من المفاهيم الأساسيّة المتداولة في عدّة مجالات إبداعيّة ومعرفيّة من أدب وفلسفة وأنتروبولوجيا وعلم نفس، ثمّ لمّا كان للمتخيّل صلة بهذه المجالات كافّة، فقد لهجت بها الألسن وتواتر استعمالها في مجالات شتّى. غير أنّ النّاظر في بعض الدراسات والبحوث يقف على حقيقة غموض هذه المفاهيم وضبابيّتها جرّاء الاستعمال العشوائي أو الوضوح المزعوم أو قلّة التحرّي في الاستعمال.

كتب ذات يوم عَالِم الأنثروبولوجيا الاسكتلندي فيكتور تيرنر Victor Turner أحد رواد التفاعلية الرمزية أن الانسان محاط بغلبة من الرموز، يشغل الرمزي حيزا كبيرا في حيلتنا اليومية، فهو يحضر باستمرار في كل تفاعلاتنا الاجتماعية، فممارساتنا الطقوسية الواقعية منها والافتراضية متخمة بمنظومات رمزية تتحدد كبنية لإنتاج الاجتماعي، وكآلية لإعادة انتاجه وبناءه من جديد .

فهذه القدرة التي يمتلكها الرمزي في تشكيل الاجتماعي تستمد قوتها في الاختلاف الحاصل بين الانسان والحيوان، فكل منهما يمتلك جهاز استقبال وجهاز تأثير، إلا أن الإنسان كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف الألماني ارنست كاسيرر ينفرد بجهاز خاص هو الجهاز الرمزي، وبالتالي تنضاف خاصية الانسان كائن رمزي إلى المقولات الأخرى الانسان كائن راغب، الانسان كائن عاقل، الانسان كائن لغوي، الانسان كائن علائقي...

-في الرمز وماهيته

يعتقد تشوسكي أن أن اكتساب اللغة قضية ترجع إلى آلاف السنين من النمو، حيث تشكل اللغة الموروثة تفكير الطفل الصغير بكل ما تحتويه من دلا لات و رموز، و عندما يكبر لا يستطيع ان ينتزع هذا العالم من دماغه، و أن لا ينتزع ما تبثته الدوال من مدلولات ورثها ضمن تركة ثقيلة من الآباء و الأجداد و من ماضيه البعيد جدا

اللغة كيان متوارث مثخن بالدلالات. في ترلثنا اللغوي يأتي الرمز –مثلا– دالا على:" تصويت خفي باللسان كالهمس و يكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم اللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين. و قيل :الرمز إشارة و إيماء بالعينين و الحاجبين و الشفتين و الفم. والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيىء أشرت إليه بيد او بعين.

لم تجاوز القواميس العربية الأخرى هذا المعنى جاء في مختار الصحاح:" الرمز الإشارة و الإيماء بالشفتين و الحاجب و بابه ضرب و نصر".و هو الصوت الخفي و الغمز بالحاجب و الإشارة بالشفة و يعبر عن كل إشارة بالرمز.

الرموز منظومة من الإشارات الجسدية و الفيزيائية الدالة على معاني و دلالات محددة.

إننا أمام إبانة بالإشارة من غير كلام بدال مادي و مدلول معنوي.

- **البحث في الجذور:**

مقابل اللفظ في الفرنسيّة كلمة(symbole) ، وهي مشتقّة من اليونانية–(sun bolon)وتعني قطعة من الخزف او الخشب تقسم بين شخصين بيد كل واحد منهما قسم يدل على هوية أحدهما ويثبت طبيعة صلته بالآخر..

وهذان الشخصان يمكن ان يكونا ضيفين او حاجّين او دائنا ومدينا.. وبالجمع بين قسمي القطعة يعترف الطرفان بما بينهما من ضيافة او صداقة او دين..

لذلك يتضمن تعريف الرمز معنيي الفصل والوصل في الوقت نفسه..

استعملت الرموز في اليونان القديمة باعتبارها علامات يتسنى للآباء بواسطتها العثور على ابنائهم المعروضين للبيع..

وقد اكتسبت الكلمة بعد العصر اليوناني وما راج بعده من ديانات قديمة وصولا الى عصر المسيحية الاول، معنى (دليل انتماء) الى الجماعة الدينية الواحدة، فضلا عن معنى اقتسام (حقيقة دينية) ليس لها دلالة الا عند اعضاء تلك الجماعة..

والحاصل ان الصيغة الاصلية للكلمة اكدت معنى التوجه الى الاخر، باعتباره مشاركا في علاقة معينة، كأن يكون صديقا او قريبا او مشاركا في جملة من الطقوس وفي نظام القيم.. وهذا ماتسهر الجماعة الدينية خاصة على تحقيقه وتتعهد بمراقبته..

ان لكلمة الرمز والعبارات الرديفة لها او المترابطة بها مثل (وظيفة رمزية)، (فكر رمزي)، (ممارسة رمزية)، (عنف رمزي)، الخ، تاريخا غنيا في العلوم الانسانية، انها وللأسف غالبا ما اخذت دلالات تختلف باختلاف الكتاب والاختصاصات ما يجعل استعمالها شديد الدقة.

- **تمييزات ضرورية**

ميز الفيلسوف واللساني (شارل. س. بيرس) بين انماط ثلاثة من الاشارة (العلامة – الايقونة – الرمز) فالعلامة هي الدخان الذي يشير الى النار، او هي اثر اقدام تشير الى مرور حيوان، الايقونة هي الصورة المتشكلة التي تمثل موضوعا (صورة الشمس التي تتمثل بدائرة صفراء مع لشعة تنطلق منها) ثم اخيرا الرمز الذي يقيم مع مايمثل علاقة اصطلاحية محضة: مثلث احمر على لوحة اعلانات مرور يشير الى خطر..

يشير الرمز عادة الى صورة او الى موضوع له قيمة مقدسة او مجازية كما في القول (الحمامة هي رمز السلام) او ان اللباس الموحد هو رمز السلطة..

في كتابه (فلسفة الاشكال الرمزية) جعل ارنست كاسيرر الحقل الرمزي يضم كلا من اللغة والفن والعالم الاسطوري – الديني، وتشترك هذه الظواهر الثلاثة في احالتها الى تمثلات (متخيلة او فعلية) لها في ذهن الانسان دلالات متعددة.. هكذا فان رمز القمر الذي يعبر عنه بكلمة، او بصورة او برسمة، يشير الى النجم في الليل، ولكنه يدل ايضا على الانوثة والخصوبة والاحلام..

يعتبر ارنست كلسيرر ان قوة الايحاء في الرمز هي التي تتيح للكائن البشري (الحيوان الرمزي) ومن حيث الجوهر ان يتخيل ويبدع ويبتكر ويفكر..

ويعتبر كارل غوستاف يونغ الرمز مؤلّفا من وعي يكون في قسم مهمّ منه جمعيّا بما أنّه متشكّل من للعادات والقيم ومناهج المعرفة واللغة التي يتعلّمها المرء، ومن لاوعي ليس في نهلية

المطاف سوى الليبيدو في اصطلاح علم النفس. وقريب من هذا التصوّر ما ذهب إليه جيلبار دوران (Gilbert Durand) انطلاقا من قراءة دلالة كلمة الرمز في اللغة الألسنيّة وهي تقوم على أمرين متلازمين: "الحسّ الواعي الذي يدرك الأشياء ويجزّئها بدقّة، والمادّة الأولى؛ أي الصورة التي تنبعث من عمق اللاوعي.